

أثر الجوارى في الأدب^(١)

بقلم عبد اللطيف المغربي

المدرس بمعهد التربية للبنات

٢

ترامى بنا القول في مقالنا الذهاب، إلى الغاية السامية التي بلغتها الجوارى بالنهضة الغنائية في أزهى عصور الاسلام . ونريد اليوم أن نطلع على قراء هذه الصحيفة الكرام من مطلع آخر، وضاء الأنوار، مختلف الثمار، بهيج الألوان، عذب المنهل، عبق الأريج، رقرق الأنداء، متجاوب الأصداء؛ ذلك هو أثر الجوارى في الأدب العربي.

ولم يكن بدعا أن يكون لمن حميد الأثر في الأدب، كما كان لمن حميده في الغناء؛ فالأدب والغناء غصنا دوحه فتيه، وكلاهما متمم للآخر مقوم له. ومتى رأيت نهضة غنائية، فالتبس أن يكون من أمتن دعائمها وأغزر مواردها؛ وأصدق طيوفها وأقوى أرواحها (الأدب). سنن متبع، وعرف مألوف، وثمرة طبعية. ومن حاول فصل الغناء عن الأدب فهو كمن يحاول أن يحول بين الزهرة وشذاها، أو النفس ومناها. فالمغنى في إيقاعه ونظم ألقانه، شاعر في أفق الأدب العالي، حر القافية والروى، ينظم ما أراد من شجون النفس وأهوائها وخليجاتها وأمانتها، في نسق من الألحان كأسلوب البيان، بعيد التأثير، شديد الأسر، روحى المدخل، سحرى المأخذ، يفوق أسلوب الشعر المقفى الموزون روعة وانسجاماً، ويفرعه حسناً وسجراً. ولهذا قالوا إن الموسيقى ضرب من التأثير لم تقو الطبيعة على استخراجه بالبيان، فاستخرجته بالألحان.

(١) راجع المقال الأول في العدد الثاني من السنة الثانية لصحيفة دار العلوم

فالموسيقى أروع من الشعر ، والمعنى في لحنه أشجى من الشاعر في شعره .
وحسبك بياناً لهذا أن الشعر يظل خامداً حائراً لا يجد سبيله إلى الآذان
والقلوب ، حتى ترفعه الموسيقى على أجنحتها الرقيقة ، وترقصه بايقاعها الحسن
المطرب ؛ فإذا هو إلى كل أذن مقرب ، وإلى كل قلب محب

وقد يكون المعنى شاعراً بالمعنى الاصطلاحي ، يقرض الشعر ، لما بين الفين من
نسب وارتباط ؛ ولهذا صار كثير من المغنين والقيان شعراء وشواعر ، ولا
غرو أن يحكم رجل الفن البار به كل الصلات التي تلاممه وتغذيه وتسمو به في
عالم الابداع والاجادة . وأحقها بالتقدمة (الشعر) قرصاً ورواية . ونحن إذا
عمدنا لأثر الجوارى في الأدب لم نكن نعني به قرضهن الشعر فحسب كأول
بادرة تعلق بالذهن من هذا العنوان ، بل نرمي إلى نواح عدة كانت النفس جياشة
بالرغبة في كل منها بمقال خاص . ولكننا آثرنا أن نضرب حولها نطاقاً من
الاختصار . ونسوقها قريبة المنال سهلة الإبراد ، لتكون بالفائدة أمجل ، وإلى النفس
أحب .

كان من أثر الجوارى في الأدب ، قرضهن الشعر في أغراضه المختلفة ، من مدح ،
وهجاء ، ورتاء ، وغزل ، وعتاب ، ووصف . لأن إعدادهن لتلك الحياة العربية
الرائعة الفخمة ، به في كثير منهن ملكة قرض الشعر ، لحسن استعدادهن الفطري ،
وكثرة ما روين من الأشعار الكثيرة في الأغراض المختلفة .

فظهرت منهن شواعر نوابغ نذكر لك شيئاً من ثمار قرائنهن
هذه فضل الشاعرة لما دخلت على المتوكل قال لها : أشاعرة أنت ؟ قالت : كذا
زعم الذي باعني واشتراني . فضحك . وقال : أنشدينا شيئاً من شعرك . فقالت :

استقبل الملك إمام الهدى عام ثلاث وثلاثين
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرين
إنا لندرجو يا إمام الهدى أن تملك الناس ثمانين

لا قدس الله أمراً لم يقل عند دعائي لك : آمينا
وهو شعر فاتر لم يبلغ حد الجودة ، ويشبه في بعض نواحيه شعر المتون .
واستحسان المتوكل له لم يكن ثمرة جودة ، بل لأنه قيل في مدحه وأراد
تشجيعها .

وهذه محبوبة جارية المتوكل الآمنة الوفية ، تصدف عن زهرة الدنيا بعد
قتله وتقيم على الحداد ، وفاء لسيدها وزهدا في الدنيا بعده . وتتشد في رثائه حين
أكرهت على الغناء في مجلس أعدائه قولها :

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرا
كل من كان ذا هياً (م) م وحزن فقد برا
غير محبوه التى لوترى الموت يشتري
لاشترته بملكها كل هذا لتقبرا
إن موت الكتيب أص (م) ملح من أن يعمرأ

وترى في هذا الشعر لوناً صادقاً من العاطفة والنبيل يرفعه عن سابقه بعض
الشيء . ونكتني بهذا القدر من أنواع الشعر العامة ، فان في استيفائها حرجاً .
ومن تأثيرهن في الأدب ، ذلك النوع الحسن من المحاورات والاجازات
الشعرية ، مما تدفع إليه الحاجة الطارئة ، والضرورة الحافزة . وفي الحق أن هذا باب
جليل من أبواب الأدب ، برزت فيه الجوارى وفقن فيه أحيانا كثيراً من صنديد
الشعر ورجالاته .

وإننا لمسمعوك شيئاً من هذا القليل يثير إعجابك وطربك .

كان محمد بن عيسى الجعفرى يهوى جارية ، فقال لصديق له : لقد شغلتنى هذه
عن صنعى وكل أمرى ، وقد وجدت مس السلوان على كبدى ، فاذهب بنا حتى
أكشفها بذلك فأستريح . فلما جاءها قال لها محمد بن عيسى : أتغنين ؟
وكنت أجبك فسلوت عنكم عليكم في دياركم السلام
فقال : لا ، ولكنى أغنى :

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العقاب
فاستحيا وأطرق ساعة ثم قال : أتغنين ؟

وأخضع بالعقبى إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذى أتصل
قالت : نعم ، وأغنى أحسن منه :

فإن تقبلوا بالود نقبل بمثله وننزلكم منا بأقرب منزل
فقطاعاً في بيتين ، وتواصل في بيتين . وهى محاورة بديعة إلى أبعد غاية ، تريك
حسن التمثل بالشعر ووضعها في مناسباته الطريفة ، على حين أنها وليدة الفجاءة
والبدية ، وتشير من ناحية أخرى إلى ما كان عليه هؤلاء الجوارى من مقدرة
فائقة . وبعد هذه تلو عليك صورة من صور الإجازات الشعرية وهى كثيرة .
قال بكر بن حماد الباهلي : لما انتهى إلى خبر عنان ، جارية الناطق ، وأنها
ذكرت لهرون الرشيد ، وأنها أشعر الناس ؛ خرجت معترضا لها . فما راغى إلا
الناطق مولاها . فقال لى . هل لك فيما سنح من طعام وشراب ، وبجالة عنان ؟
فقلت ما بعد عنان مطلب . ومضينا حتى أتينا منزله . ثم دخل فقال : هذا بكر
شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم . فقلت لا ، والله إنى لكسلاته . فحمل عليها
السوط وقال لى ادخل . ودمعها يتحدر كالجمان . فقلت أجزى

هذى عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه
فقلت :

فليت من يضربها ظلماً تجف كفاه على سوطه
ثم أنشدتها :

فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفس فى أحشائه فتكلم
فقلت :

ويكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
فقلت لها : فما عندك فى إجازة هذا البيت ؟
بديع حسن بديع صد جعلت خدى له ملاذاً

فأطرقت ساعة ثم قالت :

فعاتبوهُ فعنفوهُ فأوعدوه فكان ماذا ؟

وأنت إذا قدرت الزمن الذى قلت فيه هذه الإجازة ، أصبحت فى غنى عن التعليق عليها والاعجاب بقدرة (عنان) والثناء عليها فى موقف كهذا قد يعجز أنبغ الشعراء .

ومن تأثير الجوارى فى الأدب أيضا أنهم أصبحن متبعا خصباً للروايات الموضوعية التى تموج بها كتب الأدب ، وتشعرك لأول وهلة بكذبتها وانتحالها ؛ ونسوق إليك صورة من هذه الروايات توضح ما نقول :

قالوا إن الهادى كان له جارية تسمى « غادر » وقعت من نفسه موقعا حسنا وكان يخشى أن تصير إلى أخيه هرون من بعده . فأخذ عليها أغلظ الأيمان ألا تكون له ، فلما مات الهادى صارت إلى هرون ، ونالت عنده مكانة حسنة . وفى بعض الليالى رأت وهى نائمة الهادى . فقامت مذعورة وجلة ؛ فقال لها هرون : ما باللك ؟ قالت رأيت الهادى الآن ينشدنى :

أخلفت عهدى بعدما جاورتُ سكان المقابر
وصحبت غادرة أخى صدق الذى سماك غادر
لا يهنك إلا لفُ الجدي ولا تدركك الدوائر
ولحقننى قبل الصبا حوصرت حيث غدت صائر

ثم ولى غنى . فقال لها هرون : هذه أحلام الشيطان . قالت : كلا والله يا أمير المؤمنين . ثم اضطربت بين يديه وماتت لساعتها ! ونحن بلا ريب نحكم بزيغ هذه الرواية وانتحالها ؛ إذ ليس من المعقول أن يورد الميت عتابه فى صورة شعرية وهو فى عالم آخر بعيد عن الزخرف والصناعة ، وأن يحفظ الحى النائم هذا الشعر وهو أكثر مما ذكرت ، ويؤديه على هذه الصورة لا يخرم منه حرفا ؛ على حين أننا نرى فى المنام صورة معنوية ، وإذا استيقظنا لا يمكننا فى كثير من الأحيان ربط أجزائها ولا الاطِّلاع بكنهها . وقد أرادوا بعد ذلك أن يتموا القصة ويربطوا نتيجتها بما تضمنه الشعر ؛ فذكروا أنها اضطربت وقضت لساعتها بين

يدى هرون! والوضع في الرواية حول الجوارى أفاد الأدب بلا مراء ثروة ضخمة.

ولكن أغبط ما يؤلمنا من هذه الروايات، تلك الصور الملحة في الإسفاف والتي طوقوا بها سير كثير من خلفاء الاسلام، فصوروهم في مواقف يغضب لها الأئمة العيوف إذا نسبت إلى رجل من أوساط الناس؛ فكيف بها إذا نسبت إلى خلفاء الاسلام؟ وإن من يقرأ ما يرويه كتاب الأغاني من هذه الروايات الذميمة المنسوبة إلى هرون الرشيد، ذلك الامام الذي كان أحفظ الناس لثراث آباءه وأجداده، من الشمم والآباء وبعد الهمة والترفع عن الدنيا لدهش؛ فجزى الله أمثال هؤلاء الوضاعين بما صنعوا ما يستحقون من جزاء.

ومن تأثيرهن في الأدب أيضا إثارة ميول الشعراء نحوهن، حتى أقبلوا عليهن بأشعارهم المختلفة، من غزل وعتاب واستعطاف وغيرها. ومن الشعراء الذين لهم صيت ذائع في هذا الباب، الأحوص في العصر الاسلامي، وأبو العتاهية، وأبو نواس، والعباس بن الأحنف في العصر العباسي، وغير هؤلاء كثير يضيق المقام عن سرد أسمائهم. ولا ريب أن هؤلاء الشعراء أهدوا إلى الأدب العربي بتأثير عاطفة الميل إلى الجوارى كثيرا من الثمار الأدبية التي يزهى بها الأدب ويفخر؛ وتجسد صوراً صادقة لمواقف هؤلاء الشعراء في كتاب الأغاني وبعض كتب الأدب، فلا داعي إلى إيراد شيء منها.

ومن ألوان تأثيرهن في الأدب نشر الفكاهة والمجون في الجوارى، وأخذهن بطرق خاصة في الملابس والعادات، وكتابتهن على الأقصة والأكام والقلائس والعصائب ومشاد الطرر والذوائب والمناويل - ما يؤثر من الأشعار العذبة الرقيقة المثيرة للاحاساس والشعور.

ونذكر لك شيئا من عفيف ما كان يكتب:

كتبت جارية على رداء لها

أراهم يأمرؤن بقطع وصلى مريم في أحبتهم بذاك
فأن هم طاعوك فطاوعيم وإن عاصوك فاعصى من عصاك

وكتبت نشوان جارية زلزل على عصابتها
عين مسهدة في مائها غرقت ياليتها ذهبت لولم تكن خلقت
لم تذهب النفس إلا عند لحظتها ولا يكت بدم إلا لما أرق
وكتبت جارية على منديل

أنا مبعوث إليك أنيس مولاتي لديك
صنعتني يديها فامسح بي شفيتك

إلى آخر ذلك مما يطول بنا استقراؤه، ويشير الشعور والوجدان، وينمى
الذوق، ويصور كثيرا من الملح والفكاهات المستعذبة.

وبعد أن أوردنا ما سبق نرجو أن نكون قد وفقنا إلى جمع شتات هذا
الموضوع، وقدمناه باقة حسناء منتظمة الأواهير إلى قراء هذه الصحيفة الكرام.
بعد طول الجهد والعناء في ضم الأشياء إلى الأشياء، والنظائر إلى النظائر؛ فجاء
هذا البحث ذا وحدة مؤلفة الأجزاء؛ وقد كانت عناصره من قبل متشورة في
كتب الأدب على غير نظام، وعلنا بذلك أيضا نكون قد رفعنا ستار النسيان عن
جهة مهمة من جهات الأدب القوي الخصب، لم تعورها أقلام الكتاب باستيفاء
واستقصاء؛ فأخرجناها للناس باسمه وضاءه.

عبد اللطيف المغربي